مقدمة

تعد مرحلة الطفولة من المراحل المهمة في حياة الإنسان، وإن لم تكن أهمها جميعًا؛ لكونها مرحلة تكوين وإعداد، تُغرس فيها البذور الأولى لمقومات وملامح شخصية الفرد المستقبلية، وتتشكل فيها عاداته واتجاهاته، وتنمو ميوله واستعداداته، وتتحدد مسارات نموّه الجسمي والنفسي والعقلي والوجداني متبعًا لما توفره البيئة المحيطة من عناصر تربوية وصحية، ولما تمنحه الوراثة من قدرات واستعدادات، ومن هنا فقد أصبحت تربية الأطفال التربية المنشودة والاهتمام بها هدفًا تسعى إلى تحقيقه كل النظريات التربوية والسيكولوجية والاجتماعية، وأصبح بناء الفرد في الوقت الحاضر يُعدُّ مقياسًا مهمًّا على تحضر الأمم وتقدمها ، وأخذت الأمم المتقدمة تهتم بالطفولة كمرحلة أساسية ومهمة في حياة الإنسان، إذ إن المعالم الرئيسية لشخصيته تتحدد فيها، فضلاً عن أنه يكتسب قيمه واتجاهاته الأساسية، ويتعلم عاداته وأنماطه السلوكية فيها أيضًا، فالطفل يتأثر بعملية التفاعل بدرجة أكبر نسبيًّا من تأثر الراشد ، إذ إن للسن والخبرة الاجتماعية أثر كبير في هذه العملية ، لهذا فإن العاملين في ميدان التربية وعلم النفس والاجتماع يؤكدون على الأهمية الكبرى لعملية التفاعل هذه لأنها تعد الدعامة الأساسية، ويتشرب من خلالها الكثير من القيم والعادات والاتجاهات والخبرات، ونوع المعاملة التي يتعرض لها، فضلاً عن نوع الانفعالات والعواطف التي تسود الأسرة، لهذا فإن تأثيرها يكون كبيرًا على الطفل وعلى مستقبله فيما بعد، فالأفراد الذين نتعامل معهم في الحياة اليومية ذوي طبائع وسلوكيات مختلفة ومتباينة، ولعل السبب في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى الظروف الأسرية التي مرّوا بها؛ فأنت تجد الجبان والشجاع، الواثق والمهزوز، اللص والأمين، الفاشل والناجح، الأناني[1] والمضحي..إلخ، سلوكيات مختلفة ومتناقضة تطالعك كل يوم ، ولو عدت إلى دراسة تاريخ كل

(1) رياض الأطفال في الجمهورية العراقية، تطورها ومشكلاتها ، وأسسها التربوية والنفسية ، نجم الدين علي مروان (1973) ، مطبعة الزهراء، بغداد ، ص54 .

واحد منهم؛ يظهر لك أن الأسرة هي التي شكّلت هذه الأنماط السلوكية المختلفة، وهي التي أسهمت إلى حدٍّ كبير في بلورة شخصية كل فرد من هؤلاء.

إن المشكلة الأساسية التي تواجه التربية الأسرية في مجتمعنا العربي – لا بل في أغلب بلدان العالم – هي عدم وجود (ثوابت تربوية) – إن صح التعبير- داخل الأسرة يتربّى على أساسها كل الأطفال على حد سواء – مع مراعاة مبدأ الفروق الفردية بالطبع – فالتربية التي يتزود بها الطفل من قبل أبيه هي غير التربية التي تريدها أمه، وهناك تناقض صريح وتأرجح واضح في الأساليب التربوية التي يعامل بها كلٌّ من الأم والأب أطفالهما، وهناك تفاوت واضح أيضًا في أسلوب التعامل مع الأطفال تبعًا لترتيبهم العمري والولادي، فما زال الطفل البكر يحظى بموقع متميز داخل الأسرة بين إخوانه الذين يلونه في الترتيب، وما زال الذكر يتمتع بحظوة كبيرة بين أخواته البنات، وما زال الطفل الأخير في الأسرة، (آخر العنقود) هو الطفل المدلل الذي تعده الأسرة (دمية) تتسلى بها – الأبوين والأخوة على حد سواء–وما زال الطفل الوحيد في الأسرة هو المحظي على طول الخط؛ فليس لمطالبه حدود، وليس هناك من مبرر لأُمه أو لأبيه في أن يردّوا أي طلب له، والذكر الذي يأتي بعد عدد من البنات، أو البنت التي تأتي بعد عدد من البنين، فإن لكل منهما أيضًا موقع لا يباريها فيه أيُّ طفل في الأسرة..هكذا هي التربية التي تسود مجتمعنا العربي، ولو أضفنا إلى هذه الأساليب التربوية المستوى المعيشي للأسرة، فإن الحالة تبدو أقسى وأمر؛ فالأسرة ذات الدخل المادي المحدود سيكون النمط التربوي داخلها هو غير النمط التربوي الذي تجده داخل الأسرة التي تعيش ظروفا مادية سهلة وميسورة، أضف إلى ذلك مستوى تعليم الأبوين، والبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها الأسرة، وعوامل أخرى كثيرة، تؤثر كل واحدة منها – بقدر معين – في تنشئة الطفل وفي تحديد ملامح شخصيته المستقبلية.

وعلى الرغم من أهمية الأسرة كمؤسسة تربوية في البناء التربوي للطفل – أيًّا كانت هذه التربية – فإنها بلا شك لا يمكن أن تقدم للطفل كل ما يحتاجه من رعاية وتربية، فلقد أوجبت التربية الحديثة أن تقف إلى جانب الأسرة مؤسسة تربوية

أخرى تسهم في إعداد الطفل وتهذيبه وتربيته، وتقويم سلوكه غير المرغوب اجتماعيًّا، تلك هي المدرسة التي تعد بالنسبة للطفل الذي يدخلها لأول مرة حدثًا مهمًّا في حياته؛ إذ يتعرض إلى جملة من العوامل والمتغيرات الجديدة التي تؤثر في نموّه الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي، مما يجعله ينمو في هذه المرحلة من عمره تبعًا لتلك المؤثرات التي واجهته، فضلا عن غرسها للمبادئ والقيم والعادات والتقاليد الفاضلة في نفسه، وتحقيقها النمو المتكامل الذي يحقق له التكيف السليم، ويضمن له السلامة الجسمية والنفسية.

ولو عدنا إلى أدبيات التربية وعلم النفس؛ لوجدنا أن هناك كمًّا كبيرًا من الحقائق التي أكدت على: " أن الطفل يولد وهو لا يعرف القيم التي سيخضع لها، ولهذا تسمى مرحلة الطفولة أحيانًا بمرحلة النظام، فعلى الطفل أن يتعلم كيف يسلك المسلك المناسب في الوقت والمكان والموقف المناسب، وأن يفهم الأسس التي تقوم عليها هذه العملية؛ حتى لا يكون خضوعه لها خضوعًا آليًّا، بل خضوعاً محببًا إلى نفسه، يبذله عن طواعية ورضى، فكل طفل بحاجة إلى نظام ؛ لأن النظام يحقق للطفل الشعور بالطمأنينة، ويحقق له حدود والخير والشر، وحدود والحرية والفوضى "(1).

والمدرسة هي من أولى المؤسسات النظامية التي ينتمي إليها الطفل، والتي تفرض عليه مطالب كثيرة، يأتي في مقدمتها اتباع النظام المدرسي، والتقيد بقواعد الضبط والالتزام، وكيفية التعامل مع المعلمين ومع الأقران الآخرين، وهذه بالنسبة للطفل محددات غير مرغوبة لنشاطه واندفاعه الذي اعتاد عليه في المنزل، ومن هنا تبدأ مشكلة الطفل مع المدرسة التي قد تكون ذاتيَّة؛ مردّها الإحساس بأنه مقيد بنظام لا يعرف أهدافه، أو أنها تكون بسبب المثيرات الاجتماعية التي يخلقها المعلمون وأساليب تعاملهم مع الأطفال داخل الصف أو خارجه، أو بسبب المعايير التي يضيفونها لتقييم التلاميذ، وهناك العديد من الدراسات التي تناولت

(1) " الأسس النفسية للنمو"، فؤاد البهي السيد (1975) ، القاهرة ، دار الفكر العربي، ص222.

المشكلات السلوكية داخل المدرسة ، ولكننا ما زلنا نفتقر إلى الدراسات الميدانية التي تناولت مشكلات الأطفال داخل أُسرهم.

وعلى العموم فإن هذا الكتاب هو جهد علمي متواضع يضاف إلى جهود باحثين آخرين أدلوا بدلوهم في هذا المجال، يأمل منه المؤلف أن يسد ثغرة، ويكون إضافة مهمة تغني المكتبة العربية، ويكون عونًا لكل أب ومربٍّ ومعلم وهم ينهضون بمهمة تربية أبنائهم من النشء الجديد، وقد سعى المؤلف أن يكون هذا الكتاب مركّزًا في طرحه، منظمًا في تقديمه، وقد توزع على أربعة فصول رئيسية، تصدَّر كل فصل منها عرضٌ لواحدة من مراحل النمو في الطفولة وفقًا لترتيبها:

1- مرحلة الرضاعة (مرحلة المهد) 1 – 2 سنة. Infancy stage

2- مرحلة الطفولة المبكرة (مرحلة الحضانة ورياض الأطفال) 3–5سنة.

Early childhood

3- مرحلة الطفولة الوسطى 6 – 8 سنة. Mid – childhood

4- مرحلة الطفولة المتأخرة 9 – 12 سنة. Late childhood

ثم عُرضت فيما بعد مشكلات كل مرحلة من هذه المراحل، إذ طرحت كل مشكلة وشخِّصت أسبابها، وقدمت الأساليب العلاجية المناسبة لها، وقد تم التوسع في طرح بعض المشكلات زيادة عمَّا تقدم تبعًا لأهمية المشكلة، عندما وجدنا أن الحاجة تقتضي هذا التوسع.

وفي الختام فإننا نلتمس من القارئ الحصيف العذر إذا ما وجد في هذا الجهد ثغرة، أو هفوة، فالكمال لله وحده، وعذرنا أن هذا الجهد هو محاولة وإضافة علمية لا يمكن أن تكتمل صورتها إلا من خلال إضافات القارئ الكريم، والحمد لله الذي به تتم الصالحات.

الدكتور

حكمت الحلو